

البحر الأحمر

كطريق تجارى فى عهد البيزنطيين والعرب والمماليك

فى فترة الانتقال بين العصور القديمة والعصور الوسطى ، كانت تجارة الهند والشرق ، تتبع فى وصولها إلى الغرب ، عدة طرق . فكان ينقل جزء منها عن طريق البنجاب و هند وكوش وفارس . وكان الجزء الأكبر من هذه التجارة ، ينقل بحراً إلى فارس ، عن طريق الخليج الفارسى . ثم كان هناك طريق جنوبى ثالث ، ألا وهو طريق البحر الأحمر ومصر .

وكان البيزنطيون يشجعون هذا الطريق الجنوبى ، لمقاومة احتكار أعدائهم الفرس ، لتجارة الهند . وجستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥) ، بعد أن أعاد فتح أفريقيا . أخذ يشجع هذا الطريق . وكان أباطرة بيزنطة يهتمون باستيراد حرير الهند ، لاستخدامه فى أغراض سياسية ، من حيث التأثير به فى البرابرة المغيرين . وكان البيزنطيون يفضلون أن تصلهم تجارة الهند ، عن طريق الأحباش المسيطرين على جنوبى البحر الأحمر ، والذين كانت تربطهم بهم مصالح تجارية مشتركة ، ولم يقتصر نقل متاجر الهند ووسط أفريقيا على الأحباش ، بل كان البيزنطيون يرسلون سفنهم جنوباً ؛ وكان هناك موظف بيزنطى *logothète* ، مهمته القيام برحلة سنوية لجلب متاجر الهند ، عن طريق البحر الأحمر . وكان العرب والهنود أحياناً ، يشتركون فى هذا النقل .

وكانت المتاجر الهندية تفرغ فى عدة موانئ بيزنطية . وفى الشمال كانت تفرغ فى القازم ، بعد أن تدفع الضرائب الجمركية عند جزيرة Jotabe . ثم كانت تنقل المتاجر ، بواسطة القناة التى تصل القازم بالنيل ، والتى وجدت منذ عهد الفراعنة ، وأعاد حفرها البطالسة والرومان ، والتى كانت لا تزال موجودة ، على الأقل ، إلى أوائل القرن السادس للميلاد . وفى الأوقات التى

كانت تردم فيها أجزاء من هذه القناة ، كانت تنقل المتاجر على ظهور الإبل وعند وصولها إلى النيل ، تحمل حتى البحر الأبيض المتوسط . وكذلك كان جزء آخر من متاجر الشرق ، يفرغ في ميناء Berenice القديمة ، والتي ظلت محتفظة بأهميتها التجارية ، إلى القرن الرابع الميلادي على الأقل . وكانت تنقل منها المتاجر براً . حتى تصل إلى إقليم طيبة ، ومنها تحمل في النيل حتى الاسكندرية

وفي القرن السابع الميلاد ظهرت دولة العرب ، واصطدمت بالروم . واستولى عمرو بن العاص على مصر . وما أن استتب له الأمر بها ، حتى أخذ يفكر في تنفيذ بعض المشروعات لتحسين أحوال البلاد . فاقترح على الخليفة عمر بن الخطاب حفر قناة تصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط مباشرة . ولكن عمر رفض ، خشية استخدام الروم هذه القناة في أغراض عسكرية ضد دولة العرب .

ثم حدث بعض الجذب بحزيرة العرب ، فطلب الخليفة إلى عمرو إعادة حفر القناة القديمة ، التي كانت تصل القلزم بالنيل ، مارة بالبحيرات المرة وبوادي الطميلات ، لارسال القمح إلى الحجاز ، سنة ٦٤٣ م . واستفادت التجارة من هذه القناة . فأخذت متاجر الهند تعبر إليها من البحر الأحمر ، وتصل إلى النيل فالأسكندرية . وأخذت تعرف باسم خليج أمير المؤمنين . ولم تستمر هذه القناة مفتوحة للتجارة ؛ بل أخذ الرمل يردم بعض أجزائها ، في أوائل القرن الثامن للميلاد . وفي سنة ٧٦١ م ، أمر أبو جعفر المنصور بردمها ، لمنع وصول المدد إلى بعض الثوار بالحجاز . ولكن ردم القناة لم يوقف تيار التجارة ؛ وأصبحت متاجر الهند ، التي كانت تتجمع في عدن وجدة ، تنقل في البحر الأحمر إلى القلزم ، ومنها تحمل براً وبحراً إلى الاسكندرية . وفي ذلك العصر كان ينقل جزء من المتاجر الهندية ، من القلزم شمالاً إلى الفرما ، في موضع Péluse القديمة .

وشارلمان كان يشجع تجارة الشرق . وأرسل سفارة إلى هارون الرشيد لهذا الغرض . وعندما أصبح امبراطوراً سنة ٨٠٠ م ، زادت علاقاته بالأراضي المقدسة ، وأوجد علاقات تجارية منتظمة بين فرنسا والشرق . ويقال إن هارون الرشيد ، قد فكر أيضاً في إيصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط ، ولكنه خشى العواقب الحربية والسياسية ، التي قد تترتب على ذلك . وفي عهد خلفاء شارلمان ، أصاب التجارة عامة ، فترة تأخر ؛ ونال تجارة الهند نصيب من ذلك . إلا أنها عادت إلى الازدهار ، كما نجد في عهد الطولونيين (٨٧١ — ٩٠٤ م)

ولقد كان استقرار الصليبيين في الشام وفلسطين ، داعياً لأن تقف مصر نحوهم موقف العداء . واستمر النضال زمناً طويلاً . وكان غرض الصليبيين الأساسي القضاء على قوة مصر الحربية . وكان الرأي السائد هو قطع التجارة بين أوروبا ومصر ، لحرمان مصر من المواد الأولية الضرورية للحرب ، مثل الأسلحة والحديد والخشب . وصدرت في فترات مختلفة قوانين من جانب البابا والحكومات الأوروبية ، لمنع توريد تلك الأصناف إلى مصر . ومن الناحية الأخرى ، كان سلطان مصر إذا رغب بالتجارة الأوروبية فإنه يخالف شعوره الديني والوطني ، فنجده إذاً أنه قد وجدت لدى الجانبين ، المصري والأوروبي ، العوامل التي تساعد على إيقاف التجارة بين الهند وأوروبا ، عن طريق البحر الأحمر ومصر . وفعلاً نقصت هذه التجارة في بعض الفترات . إلا أن هذا لم يكن القاعدة العامة . فتغلب على عوامل المنع ، الرغبة المشتركة بين مصر وأوروبا ، في عدم سد باب وفير للربح من التجارة . ولم تحل القوانين البابوية دون استمرار التجارة . فبإزاء عقدت معاهدة تجارية مع مصر سنة ١١٧٣ ، وبمقتضاها تعهدت بإرسال الأسلحة . والبندقية لم تستطع إيقاف تجارتها مع مصر ، واكتفت بتنفيذ القوانين البابوية المتعلقة بمنع إرسال

الأسلحة والذخائر الحربية . وعلى العكس نجد أن الحروب الصليبية ، باستثناء فترات معينة ، كانت من العوامل الفعالة في سبيل إنعاش تجارة مصر وأوروبا ، أو بالأحرى تجارة الهند وأوروبا . وأصبحت موانئ مصر على البحر الأبيض المتوسط تعج بالتجار ، حتى أن رسول فردريك بارباروسا إلى مصر ، قد أدهشته الحركة التجارية في الاسكندرية ، في سنة ١١٧٥

والحروب الصليبية قد أحدثت تغييراً محلياً في سير التجارة في البحر الأحمر . فسيطرة الصليبيين على الشام وعلى طريق الحج البري ، قد دفعت التجارة والحجاج إلى سلوك طريق جنوبي . فكانت تجارة الهند المتجمعة في عدن تنقل بواسطة العرب والمصريين والهنود إلى ميناء عيذاب ؛ ومنها تحمل المتاجر على ظهور الجمال إلى قوص ، التي أصبحت مركزاً تجارياً عظم الأهمية وكانت المسافة بين عيذاب وقوص تستغرق من ١٧ إلى ٢٠ يوماً . ومن قوص كانت تحمل المتاجر في النيل إلى دمياط ورشيد . ولاحظ أنه كان محرماً على تجار الغرب الوصول إلى البحر الأحمر . وكان السلطان يراقب سواحله للحيولة دون إفلات بعضهم ، وذلك خشية تأمر الأوروبيين مع الأحباش مثلاً ضد مصر ؛ والسبب الأساسي هو احتكار المصريين أو المسلمين عملية نقل التجارة .

وطريق عيذاب — قوص أخذ يفقد أهميته التجارية منذ ١٣٧٨ . فبعد أن هدأت الظروف في فلسطين وسوريا ، أعاد صلاح الدين بن كثرّم تجديد ميناء الطور القديمة ؛ ويروي بعض الرحالة الإيطاليين نبأ هذا التحول . وأخذت تفرغ متاجر الهند في الطور ، ثم تنقل بطريق القوافل ، وتمر أمام دير القديسة كثرين ، وتحمل إلى مصر أو إلى الشام . وكذلك أخذت عدن تفقد أهميتها . وسبب ذلك أن أمير اليمن أخذ يحاول نقل متاجر الهند بطريق القوافل المارة ببلاده ، وسعى للحيولة دون انتقالها إلى مصر . فساء هذا الهنود ، ونقلوا مركزهم من عدن إلى جدة سنة ١٤٢٤ ، التي كان قد

استولى عليها منذ قليل ، سلطان مصر ، الملك الأشرف برسباي ؛ ورحب السلطان بهذا الانتقال . وأخذت سفن الهند تتقاطر إلى جدة . وكانت البضائع الخفيفة تنقل بطريق القوافل إلى مكة ، وتصل مصر بعد مسيرة ٣٠ يوماً . والبضائع الثقيلة كانت تنقل في البحر الأحمر إلى ميناء الطور . وفي ذلك العهد نجد أيضاً ميناء السويس إلى جانب الطور ، ولكنها كانت ميناء لإنشاء السفن أكثر منها ميناء تجارياً .

ولنعرض الآن لمقارنة موجزة بين متاجر الشرق والغرب . فلقد كانت أهم متاجر الهند ووسط أفريقيا التي تعبر البحر الأحمر إلى مصر فأوروبا ، هي التوابل كالفلفل والمسك والقرقة والكافور ، ثم خشب الأبنوس والعاج والحرير واللآلئ والأحجار الكريمة ، وكان الفلفل للاسكندرية في العصور الوسطى ، بمثابة القطن والشاي معاً بالنسبة لانجلترا في الوقت الحاضر .

وكان يصل مصر من أوروبا الخشب والحديد والنحاس والزيت والشمع والزيب والفراء والأجواخ والمنسوجات والمصنوعات الحديدية والفضية والبللورية . وكان يرسل جزء كبير من هذه الواردات إلى الحبشة والهند عن طريق البحر الأحمر . وفي أي جانب كان الربح ؟ في القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان يدفع تجار الغرب سنوياً نحواً من ٣٠٠,٠٠٠ من الدوكات ، ثمناً لمتاجر الهند ، وهذا غير ما كانوا يرسلونه إلى مصر من المنتجات والمصنوعات الأوروبية على سبيل المقايضة . وكانت تدفع متاجر الهند أولاً في جدة ضريبة حوالى ١٥ ٪ ؛ وكذلك كانت قيمة الضريبة في الطور ، وفي القاهرة ، وفي الاسكندرية . وهذا غير ضرائب أخرى خاصة بالسلطان ، فضلاً عما كان يتعرض له التجار من المغارم . وكان يبلغ ثمن متاجر الهند في أوروبا أضعاف قيمتها في الهند .

وارتفاع أسعار متاجر الهند ، بسبب احتكار مصر والبندقية ، كان

من العوامل التي حفزت البرتغال للبحث عن طريق آخر للهند ، في عصر سادت فيه حركة الكشف الجغرافي . ففي سنة ١٤٨٧ وصل بارتليميو دياز إلى رأس الرجاء الصالح ؛ وفي سنة ١٤٩٨ وصل فاسمكودي جاما إلى كاليكوت ثم وصل كبرال بأسطولهم إلى الهند في سنة ١٥٠٠ ، واصطدم بالمصريين ، وضرب أسطولهم التجاري في كاليكوت . ثم أخذ البرتغال يسعون في قطع التجارة بين مصر وساحل ملبار .

ووصول البرتغال إلى الهند قد أقلق مصر والبندقية . فبعثت البندقية عدة رسل (١٥٠٢ — ١٥٠٤) ، إلى سلطان مصر ، وقدمت إليه مقترحات ، يقال إنها عرضت عليه حفر قناة تصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط ؛ ثم اقترحت أن يرسل الغوري بعثة إلى الهند ، لحفظ وتنمية العلاقات التجارية مع مصر ، ولإقناع أمراء الهند باقفال موانئهم أمام البرتغال ، الذين إذا تركوا يتغلغلون في البلاد ، سينتهون بالاستيلاء على الهند . ثم اقترحت البندقية أيضاً أن يجلب الغوري كميات كبيرة من التوابل بثمان أقل ، واقترحت تخفيض الضرائب الجمركية ، حتى يستطيع البنادقة منافسة البرتغال . ولكن الغوري لم يعبأ بهذه المقترحات ، واكتفى بأن أوصى بصنع بعض السفن الحربية في الهند لكي يقاوم بها البرتغال . ثم بعث رسولا إلى أوروبا لكي يسعى ، عن طريق المفاوضات ، لإيقاف تقدمهم في الهند ولكن البندقية لم تستمع إليه ، وكانت ترغب في أن تبقى سراً مساعياً ضد البرتغال . ورسول الغوري هدد البابا بهدم قبر المسيح وبالتنكيل بالمسيحيين في أملاك سلطان مصر ؛ فأثار هذا التهديد حنق البابا ؛ وهدد ملك البرتغال باحتلال مكة . وبعد قليل رأت البندقية أن تعقد معاهدة مع السلطان في سنة ١٥٠٧ ، تعهدت فيها بأخذ كمية معينة سنوياً ، من متاجر الهند في الإسكندرية .

ولقد حاول المصريون والعرب الوصول إلى الهند بالاتجاه جنوباً نحو سيلان ، تجنباً للاصطدام بأسطول البرتغال . ولكن البرتغاليين احتلوا جزيرة سقطرى

سنة ١٥٠٦ ، وبذلك ضيقوا الحصار على مخرج البحر الأحمر . وكان لمصر إذ ذاك نفوذ في الحجاز ؛ وكان الغورى يتدخل في المنازعات الداخلية بين أمرائه ؛ وكانت لمصر قاعدة بحرية في جدة . أما اليمن وسواكن ودحلق ومصوع لم تكن خاضعة للنفوذ المصرى ؛ وكان يخشى أن تكون هذه الأماكن مراكر عدائية لمصر . وكان الغورى إلى ذلك الوقت قد تغاضى عن اعتداءات البرتغال ضد رعاياه في المحيط الهندى . وأخيراً رأى وجوب الالتجاء إلى القوة ، فأخذ يعد حملة بحرية ضد البرتغال ؛ وساعده البنادقة سرّاً . وخرج الأسطول المصرى من السويس ، وعدته ٥٠ سفينة ، بقيادة الأمير حسين الكردي ، ورسى في جدة سنة ١٥٠٧ ؛ ثم اجتاز بوغاز باب المندب ، ومنه اتجه إلى جزيرة ديو ، التي كانت من أملاك مظفر شاه الخوارزمى عدو البرتغال ؛ فأحسن استقبال الأسطول المصرى . وفاجأ المصريون أسطول الميدا الصغير ؛ وبعد معركة حامية تمكنوا من هزيمته في يناير سنة ١٥٠٨ . وبالرغم من الخلاف الذى نشب بين الميدا نائب الملك فى الهند والبوكيرك ، فان المصريين لم ينتهزوا الفرصة لتوجيه الضربة الثانية ضد البرتغال . فاستطاع الميدا أن يجمع قواته ، وأن يشترك بالأسطول المصرى عند ديو أيضاً ، وتمكن من تخطيطه في فبراير سنة ١٥٠٩ . ولجأت بقايا الأسطول المصرى إلى سواحل جدة ؛ ولم يجرؤ الأمير حسين على الرجوع إلى مصر .

وماذا كان موقف البندقية إزاء تلك الحوادث ؟ ولماذا لم يذهب البنادقة إلى لشبونة من أول الأمر ؟ نجد أن ظروف البندقية فى أوروبا لم تكن تمكنها من مساعدة الغورى جدياً ضد البرتغال . فقد كانت تواجه حرب حلف كبرى ؛ وكانت تحاول أن تخفى مساعداتها لمصر . وكانت فلورنسا والبرتغال تتهمانها بمساعدة مصر حريباً . ولم يكن من مصلحة البندقية أن تضم البرتغال إلى جبهة الأعداء . ومن ناحية أخرى نجد أن البنادقة لم يذهبوا أول الأمر إلى لشبونة أولاً لأن طريق رأس الرجاء الصالح كان طويلاً جداً ؛ وثانياً

لأن البرتقال كانت ترحب بقدوم البنادقة إلى لشبونة . ولكنها كانت لا تقبل اشتراكهم في السفر إلى الهند ؛ وثالثاً لأن قوة البندقية البحرية كانت قد ضعفت ، ولم يكن من مصلحتها تشتيت قوتها البحرية فيما وراء البحار ، وأمامها الخطر العثماني ، وأخيراً لأن البنادقة إذا ذهبوا إلى لشبونة أثاروا غضب السكان ، وأضاعوا ما بقي لهم من تجارة في شرقي البحر الأبيض المتوسط .

وبعد موقعة ديو أخذ الغوري يعد أسطولاً ثانياً ، وطلب امداداً في البندقية ؛ ولكنها لم تشأ أن تتورط ، وأشارت عليه بالاتجاه إلى السلطان العثماني . فوعد بايزيد بالمساعدة ولكن أعداء مصر لم يكونوا غافلين عن هذه الحركات ، فخرجت سفن فرسان القديس يوحنا من رودس بأمر قائد برتغالي ، وحطمت السفن المصرية التركية بالقرب من الاسكندرية في صيف سنة ١٥١٠ . فحنق الغوري ، وقبض على القناصل والتجار والرعايا الأجانب ، وفي مقدمتهم البنادقة . ولم تحل مشاغل البندقية في إيطاليا دون اهتمامها بتجارة الشرق ، ومنافسة الفرنسيين للحصول على المقام الأول في تجارة الشرق ، قد جعل البندقية تدرك حرج الموقف ، ووجدت أنه من الضروري إرسال أحد أعضاء مجلس السناتو Trevisani ، سفيراً إلى الغوري في مايو سنة ١٥١٢ . فأمكنه إقناع السلطان باطلاق سراح الأسرى ؛ وأخذ يزيل ما علق بنفسه من وشايات المنافسين ؛ وذكر أن البندقية كان في استطاعتها الذهاب إلى لشبونة لأخذ متاجر الهند ، ولكنها كانت تحرص على تنفيذ اتفاقية سنة ١٥٠٧ . وفي سنة ١٥١٤ قررت البندقية إعفاء تجار الفلفل من الضرائب البلدية ؛ وكانت تأمل أن يخذو الغوري حذوها

وكان نفوذ البرتغاليين قد ازداد في الشرق ؛ فاستولوا على goa في سنة ١٥١٠ ، وطرّدوا منها تجار العرب . ولكن عدن صدّتهم في سنة ١٥١٣ ، فأرسل الغوري ينيء أمير اليمن الطاهري ، ونشط في إعداد أسطوله الجديد

المسكون من ٦٠ سفينة و ٦٠٠٠ من الرجال ، وأعطى قيادته للرئيس سليمان .
ووصلت هذه القوة إلى جدة ، ثم إلى جزيرة قران ، في يوليو سنة ١٥١٥ .
ولكن الأسطول المصرى انحرف عن الغرض الاساسى من هذه الحملة ،
واتجه إلى مهاجمة اليمن . وسواء كان هذا الهجوم تليكوأ من جانب الحملة
المصرية ، وتهييا من ملاقاتة البرتغال ، أو كان القصد منه الاستيلاء على
قواعد بحرية لازمة لتموين الأسطول المصرى ، فإن الحملة المصرية قد استمرت
في التوغل في اليمن ، واستفادت من النزاع الداخلى في البلاد . فاستولى
المصريون على الحديدة وصنعاء ؛ ولكن عدت تمكنت من المقاومة ،
وفى تلك الأثناء وصلت الأخبار بهزيمة الغورى وقتله ، وبتقدم العثمانيين في
سوريا ومصر سنة ١٥١٧ . فوقفت مشروعات المصريين في البحر الاحمر
والمحيط الهندى .

وأخيراً لم يقو البنادقة على مقاومة طريق البرتغال ، واضطروا إلى اتباع
التيار الجديد . فاتجه فريق من تجارهم إلى لشبونة لأخذ متاجر الهند ، وفى
الوقت نفسه احتفظت البندقية بما بقى لها من تجارة مع مصر ، وتمتعت فى عهد
العثمانيين بما تمتعت به فى عهد المماليك . فرأت أن من الضواب الجمع بين
الطريقين : لشبونة والاسكندرية

نستخلص من هذا ، أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، قد أصاب
تجارة الشرق ، عن طريق البحر الاحمر ومصر ، بضربة قوية ، فهبطت هذه
التجارة ، وانتقل مركزها من الاسكندرية إلى لشبونة . ولم يكن ليعيد إلى
هذا الطريق القديم أهميته ، إلا فتح قناة تصل البحر الاحمر بالبحر الابيض
المتوسط . ولقد وجدت عدة محاولات ، أثناء القرن السادس عشر ، لحفر
قناة تصل البحرين . وفى عهد سليمان القانونى فكر العثمانيون فى حفر القناة ،
سنة ١٥٢٩ . وسنان باشا فاتح اليمن ، حاول حفر هذه القناة ، لكن يسهل
أعماله الحربية فى البحر الاحمر ، سنة ١٥٦٩ . والباباسكستوس الخامس

(١٥٨٥ — ١٥٩٠) كان يحبذ فكرة الاستيلاء على الاسكندرية ، وشق قناة تصل البحرين . وكذلك حاول السلطان مراد الثالث حفر القناة ، وخصص لذلك ١٠٠.٠٠٠ عامل ، سنة ١٥٨٦ . ثم جرت محاولات أخرى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر لحفر القناة ، ولكنها بقيت مجرد مشروعات . وتأخر تنفيذ مشروع إيصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط إلى عهد إسماعيل ؟

من عثمان

المراجع

- أبو الفدا : تاريخ الملك المؤيد
القسطنطينية ، ١٢٨٦ هـ
- المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . القاهرة ١٣٢٥ هـ
- Battistella, A. = La Repubblica di Venezia ne'suoi undici secoli di storia. Venezia, 1921
- Charles-Roux, J. = L'Isthme et le Canal de Suez. 2 vols. Paris, 1901.
- Heyd, W. = Histoire du Commerce du Levant au moyen âge. 2 vols. Leipzig, 1923.
- Kammerer, A. = La mer Rouge, L'abyssinie et L'Arabie depuis L'Antiquité. 2 vols. Le Caire, 1935.
- Müller, G. = Documenti degli archivi Toscani, sulle relazioni delle città Toscane coll' - Oriente Cristiano e coi Turchi fino al 1531. Firenze. 1874.
- Quatremère, Et. = Mémoires sur L'Égypte. 2 vols. Paris, 1811.